محمود سامي البارودى

للأستاذ محمود أبو رية

لا نكاد نجد فى تاريخنا الحديث عظيماً أصابه من الظلم وناله من العقوق مثل محمود سامى البارودى رحمه الله . فعلى أنه سياسى كبير ، وجندى عظيم ، وإنه فوق ذلك شيخ شعراء هذا العصر بلا منازع ، فان أمته قد ألقت به فى زوايا النسيان وتركته على درجة الإهمال ، حتى لا تجد أحداً يعنى به ، أو يهتم بأمره ، أو يعمل على نشر آثاره ، لا من رجال السياسة ، ولا من رجال الأدب . اللهم إلا فذلكات صغيرة لا تجزئ ولا تبين !

ولقد كنا نظن أن مرد ذلك كله إلى طغيان الاحتلال الذى جثم على صدر البلاد سبعين سنة كاملة لأنه كان من كبار زعماء الثورة العرابية الذين كان الناس يخشون ذكرهم ويخافون أن يدرسوا تاريخهم أو يشيدوا بعظمتهم ؛ وإنه عندما يندك صرح هذا الطغيان وتنكس أعلامه يأتى لنا أن نرفع عنه تراب الإهمال ، ونضعه فى مكانه (السامى) بين عظماء الرجال . ولكن وا أسفا ! فانا ما زلنا مفرطين فى جنبه ، جاحدين لفضله

وإنا بكلمتنا هذه التى نرسلها اليوم لا نريد أن نكشف فيها عن جوانب هذا الرجل السياسة أو الحربية لأن هذا مما يجب على غيرنا أن يؤديه له . وكذلك لا نحاول أن ندرس نواحيه الأدبية فانها تحتاج إلى كتاب برأسه ، وهذه الدراسة ولا ريب دين كبير فى عنق كل من يتصدى لدرس حياة الأدب العربى فى عصرنا الحديث . وإنما هنا مما نكتب أن نأتى بذرو من تاريخه الأدبى نستطرد منه إلى ما نحن بسبيله من المطالبة بطبع كل ما ترك لنا من آثار أدبية جليلة يقضى الواجب أن نحرص عليها ، ونعمل على نشرها ، ليتنفع الأدب وأهله بها . ونحن إذا بلغنا هذه الغاية نكون قد أحسنا إليه غاية الإحسان ، وحفظنا ذكره عطراً على وجه الزمان . وما حياة العظيم إلا حياة آثاره وما ينتفع الناس من علمه وأعماله ، وما عدا ذلك فهو لغو باطل ، وعبث ليس وراءه طائل (فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

لقد نشأ هذا الرجل فى الأدب نشأة عجيبة لا تكاد تتفق لغيره من الأدباء والشعراء إلا فى الفلتة والندرة !

ذلك أنه — على ما ذكر صديقه الشيخ حسين المرصفى أستاذ الأدب العربى بدار العلوم (كان) فى كتابه الجامع (الوسيلة الأدبية) (١) « لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية — غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وحفظه فكان يستمع بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعانى والتعلقات المختلفة فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . وسمعته مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، فقلت له فى ذلك ، فقال : هو كذا فى قول فلان ، وأنشد شعراً لبعض العرب . فقلت تلك ضرورة ، وقال علما العربية إنها غير شاذة . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جمع معانيها ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطئها مدركا ما كان يلبغى وفق مقام الكلام وما لا ينبغى ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء ، ولشعر الأمراء كابى فراس والشريف الرضى والطغرائى تميز عن شعر الشعراء — هذا هو الأمير الجليل ذو الشرف

(١) ص ٤٧٤ ج ٣

الأصيل والطبع البالغ نقاؤه ، والذهن المتناهي ذكاؤه ، محمود سامي باشا البارودي »

هذه هي طريقة البارودي في دراسته للأدب العربي ، وكذلك كانت سبيله في دراسة الأدبين التركي والفارسي ، فهو لم يختلف فيهما جيما إلى معاهد العلم ، ولم يجلس إلى الأساتذة والمؤدبين في أماكن الدرس ، ولا كان يتكئ في حياته على ما يتكئ عليه الناسرون في بلادنا من الشهادات والإجازات العلمية

ولم يكن أمره كذلك إلا لأنه قد أوتي « من صفاء الفطرة ونقاء الذهن وكمال الاستعداد » مالم يؤت غيره في عصره . وبهذه العبقرية الفذة استطاع أن يسمو بشاعريته إلى مرتقى استوى فيه على عرش الشعر العربي في العصر الحديث ، وأصبح — بلا مراء — نابغة العصر ، وإمام الشعر في مصر وغير مصر ، وإليه يرجع الفضل في بعث دولة الشعر بعد أن ظلت قرابة ألف عام في جدثها ، وعلى طريقته سار كبار شعرائنا أمثال صبري وشوقي وحافظ . ولقد بلغ من نبوغه في الشعر أن زاحم بمنكبيه من سبقوه من فحول الشعراء ، جاهليين ومخضرمين ومولدين ؛ فعارضهم في كل باب بقصائد عصماء أربى عليهم في أكثرها

وكان ظهور هذا الشاعر المتفذ في عصر لم يكن يهيئ لظهور بشاعر عظيم مثله ، وخرج من بيئة لا تنبت مثل زرعه ، ونشأ بين فئة من الشعراء أمثال الليثي والنجاري والنديم والإيباري ، أولئك الذين كان جل همهم ، وأقصى ما يعصر من قرائحهم أن يأتوا ببيت فيه نكتة بديعية !

ولا تتعدى أغراضهم المدح والاستجداء ، بشعر ليس فيه جديد وليس فيه رواء

وقضى البارودي ما قضى من حياته بين وطنه ومنفاه الذي لبث فيه أكثر من سبعة عشر عاما إلى أن انتقل إلى جوار ربه في يوم الاثنين ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ كما حققناه بمجلة الرسالة الغراء [٢] لا كما ذكره الدكتور هيكل في تقديمه لديوان البارودي من أنه مات في الأيام الأخيرة من ديسمبر سنة ١٩٠٤ !

وقد خلف لنا ثروة خالدة في الأدب بعضها من شعره وبعضها مما اختار في الشعر والنثر وغادرها إلى رحمة ربه ، مخطوطة لم يطبع منها شيء في حياته

وفي سنة ١٩١٠ ظهر أهل الأدب (بمختارات البارودي) في أربعة أجزاء كبيرة من الغرار الكامل تشمل ما اختاره من شعر ثلاثين مخلا من الشعراء المولدين ، ثم ظلوا يترقبون ظهور ديوانه ، ومختاراته في النثر التي سماها (قيد الأوابد) وطال ارتقابهم حتى خرج اليهم في أواخر سنة ١٩١٦ جزآن من ديوانه لم يكادوا يطلعون عليهما حتى ضاقت صدورهم بما حملا من شرح ممل ثقيل حشد فيه شارحه الشيخ محمود النصوري أحد علماء الأزهر من اصطلاحات أهل المنطق وقواعد علم الكلام والأصول ما نفرهم منه وزهدهم فيه . وقد عد بعضهم هذا الشرح من المحن التي ألحت على البارودي طوال حياته من فقد أبيه في طفولته وموت زوجه وأولاده ومن نفيه عن أوطانه ثم فقد بصره في آخر حياته . ولم يكن نفور الأدباء إلا لأن الشعر لا يحتمل منطقا ولا فلسفة . وكان مما ثمنوه يومئذ أن لو خرج هذا الديوان عاريا من كل شرح حتى لا ينشى نوره مثل هذا السحاب الثقال — وظلت هذه الأمنية تعتلج في صدورهم حوالي ربع قرن إلى أن حملت إليهم جريدة الاهرام [٣] بشرى خفقت لها قلوبهم إذ روت أن ديوان البارودي قد فرغ من تصحيحه ودفع به إلى مطبعة دار الكتب لتتولى طبعه على نفقة وزارة المعارف وأنه سيخرج في ثلاثة أجزاء

وفي سنة ١٩٤٠ ظهر الجزء الأول من طبعته الجديدة بشرح لا بأس به وتلاه الجزء الثاني في سنة ١٩٤٢ يحمل

(٢) العدد ٨٩٧ الصادر في ١١ — ٩ — ١٩٤٠

(٣) العدد الصادر في ١٣ — ٣ — ١٩٣٩

من قصائد الديوان إلى حرف (الكاف) ويدعونا الإنصاف إلى أن نذكر أن الفضل فى ظهور هذين الجزءين إنما يرجع إلى النقراشى رحمه الله وكان وزيراً للمعارف يومئذ ثم انتظرنا ظهور الجزء الثالث ثمانية أعوام كاملة . ولما لم يظهر فيها استصرخنا وزارة المعارف على صفحات جريدة الاهرام [٤] لكى تعمل على إخراج الجزء الباقى من هذا الديوان ثم تردفه بكتاب (قيد الأوابد) وكان أملنا كبيراً فى تحقيق رغبتنا التى هى رغبة الأدب والأدباء إذ كان يتولى وزارة المعارف حينئذ الدكتور طه حسين عميد الأدب ، وخير من يعمل على نشر تراث لغة العرب ؛ ولكن يؤسفنا أن نقول إن صرختنا هذه قد ذهبت أدراج الرياح وبقى الديوان إلى اليوم ناقصاً لا يعرف الناس عنه ولا عن كتاب (قيد الأوابد) شيئا

ومن أجل ذلك رأيت أن أنتهز فرصة الذكرى الثامنة والأربعين لوفاة شاعرنا الكبير — وانقضاء عشرة أعوام كاملة على ظهور الجزء الثانى كانت كافية لأن يعاد طبع الديوان كله فيها طبعة ثانية — فأرسل صيحة أخرى على صفحات مجلة الرسالة الغراء ونرجو أن تبلغ مسامع وزارة المعارف فتصغى اليها وتحقق ما فيها ، ولا تذهب هباء كما ذهبت التى سبقتها . ونأمل كذلك من حضرة مدير دار الكتب وهو أديب كبير أن يستمع اليها ويعنى بها حتى يرى أهل الأدب بين أيديهم فى القريب العاجل ديوان البارودى كاملا ، وكتاب (قيد الأوابد) بالطبع ماثلا المنصورة

محمود أبو ريه

(٤) العدد الصادر فى ٢٦ — ٣ — ١٩٥٠

ذكرى إحـــــــــراق القاهرة

فى مثل هـذا اليوم أرعدت المدافع فى الفنال ودمرت فى القاهره
فى مثل هذا اليوم أشعلت الخيانة نارها فى قلب مصر الثائره
فى مثل هـذا اليوم أحرق منزلى وغدوت بين حرائق متناثره
فى مثل هذا اليوم كانت ثورة الشعب الأبى على الذئاب الغادره

أنا لست أنسى ليلة مجنونة
هوجاء ترقص فى اللهيب الأحمر
وأنا أحملق فى الفضاء محطما
حيران أرنو فى أسى وتحسر
والأفق عربيد اللظى وتجومه
سكرت بأنفاس الدخان الأغبر
والجو يختنق الرؤى ونسيمه
يسرى بخطو واجف متعثر
والنار تحكى للسماء ملاحما
لبطولة الشعب الذى لم يقهر
والريح تصرخ فى الظلام كأنما
ضاقت بلؤم الغاشم المتجبر
نيرون مصر أحالها حمما وأشعلها ليرقص فى اللظى المتسعر
نيرون أوقف ثورة دموية
هبت أعاصيرا على المستعمر

سعد وعيسى